

# أدبية أشكال التعبير الشعبي الأمازيغي

أ. حورية بن سالم  
جامعة تيزي وزو

## 1- مقدمة منهجية:

تمثل الفنون القولية الشعبية بمختلف أنماطها عدسة اجتماعية مقعرة لِمعان ودلالات متغايرة، متباينة، معقدة، في إطار أنظمة اجتماعية معقدة أيضا.

نسعى في هذه المحاولة إلى النفاذ إلى أعماق الألفاظ بهدف استجلاء المعنى الخفي، مروراً بجسر آليات السيميائية التأويلية التي ترمي إلى استقصاء الحركة البنائية، بحثاً عن السياقات الغائبة عنها، للوصول إلى إبراز البنى العميقة المحورية التي تتضمنها الأمثال والألغاز، لإظهار دورها في تحديد ثقافة وطنية، وذلك عن طريق تفجير مجموع العلائق التي تنظم هذه التراكمات بعيدة عن المنحى الانطباعي الذي لم يعد ينفع. يقول السكاكي: ((إنّ المفردات رموز على معانيها، وإن هذا لا ينفي وجود فوارق صوتية في مفردات الحروف التي تختص بها))<sup>(1)</sup>.

تعد صفة اللفظ بمدلوله صفة من الصفات المميزة لحقل العلامات التي لها طبائع البناء التركيبي لمدلول اللفظ وما ينجر عنه من إشارات وعلامات سيميائية تندرج هي الأخرى لتمحور العناصر التكوينية للبناء اللفظي، ذلك أن الكلمة المفردة إما أن يكون معناها مستقلاً بالمفهومية بشكل لا يحتاج في فهم معناها الإفرادي إلى غيرها أو لا يكون كذلك.

كما أننا نستعين هنا بالسيميوطيقا التي تتناول المستوى البراجماتي (النفعي) من حيث فاعلية العلامة وتوظيفها في الحياة العملية، عن طريق دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، كون اللغة تحمل وظيفة إيصالية وأخرى ترميزية.

يرى شارل موريس أن العلاقة بين الإشارة والمجموعة الاجتماعية تتمثل في علاقة وظيفية ودلالية، أمّا العلاقة بين الإشارات على اختلاف أنواعها وأصنافها فهي تتجسد في العلاقات التركيبية.

ونبحث أيضا عن شفرات الملفوظ الإشاري لإبراز السياق الدلالي القائم على بنية اللفظة المعبرة، وعن العلائق بين المدلولات ورصد التدايعات المتعاقبة واقتناص المعنى الكامن في الطاقة اللامتناهية للرمز، دون أن ننسى عملية ترصد المجال الدلالي لسائر التشاكلات الواردة في التعابير المختارة للتحليل<sup>(3)</sup> للكشف عن الدلالات ذات المعايير الأخلاقية والفكرية والنفسية والثقافية.

## 2- النماذج المختارة للتحليل:

أ- الألغاز:

تحمل التعابير الشعبية في طبيعتها أبعادا ثقافية من إشارات ورموز ودلالات، يصعب الإلمام بمعانيها، لذا نلقي أضواء كاشفة على زمرة من هذه الدلالات المتنوعة، المتباينة، المتشابهة، لتكون عينات لمثيلاتها التي تزخر بها المادة الخام التي تتضمنها المدونة التي جمعناها من الميدان.

جاء الخيال الشعبي شديد الحساسية في التصور، حيث نجد ملاءمة دقيقة ومنطقية تجمع بين الدال والمدلول، فإن الألغاز تدل على ذكاء العقلية الشعبية من جهة، وقدرتها على ربط الصلة بين اللفظ الظاهر المنطوق والمعنى الباطن المقصود، من جهة أخرى؛ فهي ((إجمالا مواقف تدل على ذهن منفتح وعقلية تعيد الأشياء إلى أصولها بحيث تبدو لها المعقدات بلا تعقيد))<sup>(4)</sup>.

يرى كاسيريه أنّ الإنسان حيوان رمزي في لغاته وأساطيره ودياناته وعلومه وفنونه<sup>(5)</sup>. ويقول أرسطو إن الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة<sup>(6)</sup>. ففي ذمل أمزمر إيس أمن أمذغر؟!<sup>(7)</sup>

ليست الألغاز الشعبية وليدة تفاعل الإنسان ومحاولة تكيف مع الطبيعة الشاسعة التي تحيط به فحسب، بل تعد ذخيرة اجتماعية زاخرة بقيم اجتماعية، ثقافية... الخ.

يدل هذا اللغز على قدرة التركيب ونسج الأقوال المأثورة التي تختفي وراء ألفاظها ورموزها دلالات عميقة. ويحمل اللغز نسيجا بلاغيا حيث شبه العجين بحيوان صغير، ووجه الشبه بينهما القدرة الكبيرة على امتصاص الماء، وقد أبان خاصية بارزة وأساسية للعجين وهي القدرة الفائقة على امتصاص الماء إلى أن يصير لونه أبيض ناصعا.

وفي مَلِّ هَرَسٍ زَقَعُ حَبَسٌ ثَرْفٌ َ تَنْدُ غَلْبَحَرٌ يَطْسَنُ (8).

إنَّ الإنسانَ الشعبيَّ صاحبَ نظرٍ ثاقبٍ، وحَدسٍ خاطفٍ؛ يبحثُ باستمرارٍ عنِ قرائنٍ للتعبيرِ عنِ أفكارٍ ودلالاتٍ يكونُ قد استقاها من محيطه، فقد أجاد كثيراً في تشبيهه أعضائه بأشياءٍ يستخدمها أو يجتزئها من المحيطِ الشائعِ الذي يحيا فيه، فشبهَ عمليةَ هرسِ الأسنانِ الناصعةِ البياضِ للأطعمةِ بالطاحونةِ التي ترحي وتطحنُ الحبوبَ والشعيرَ أو تعصرُ الزيتونَ، واللسانَ الأحمرَ يقومُ بعمليةِ حبسِ الأطعمةِ في الفمِ حتى تطحنُ جيذاً؛ ثم شَبَّهَ البلعومَ بمجرىِ النائمِ والساكِنِ، قبلَ أن تصلَ الأطعمةُ المهرسَةُ، ليتحوَّلَ هذا السكونُ إلى حركةٍ لاستكمالِ عمليةِ الطعنِ لتسهيلِ عمليةِ الامتصاصِ مثلِ البحرِ الذي يتحولُ إلى هيجانٍ بعدِ هدوءِ.

استعملَ اللغزُ الألفاظَ: هرس، حبس، البحر، للتعبيرِ عنِ علاماتٍ داخلِ الحياةِ الثقافيةِ والاجتماعيةِ، لأنَّ محتوىَ الفكرِ قد يأتي موحياً، ملغزاً، مجرداً، رامزاً.

وفي: نَسَعُ أَيَفْكَ أَوْرُثْتَزَي، نَسَعُ إِفْرِيوُنْ أَوْرُ ثَنْفَي (9)

يشيرُ هذا اللغزُ إلى دَقَّةِ الملاحظاتِ اليوميةِ للمبدعِ الشعبيِّ، وهو يتفاعلُ ويتعاملُ مع محيطه الواسعِ حباً في اكتسابِ الخبراتِ المتعدِّدةِ لبناءِ رصيدهِ المعرفيِّ والعلميِّ والثقافيِّ حتَّى يتعرَّفَ على الأشياءِ التي تحيطُ به ويعي مكوّناتها وأسرارها ومغزاها.

يصرِّحُ هذا اللغزُ في شطره الأوَّلِ بأنَّ هذا الشيءَ له حليب، إلا أنَّه لا يحلب، وهو بذلك يبعدُ التديبات، وجاء شطره الثاني ليزيده تعقيداً، حيثُ إنَّ هذا الشيءَ يملكُ أيضاً أجنحةً، لكنَّه لا يطيرُ في الهواءِ الطلقِ الفسيحِ، وبذلك يبعدُ أيضاً كلَّ أصنافِ الطيورِ الطائرةِ، وهكذا صارَ اللغزُ معقداً، فما هو الشيءُ الذي له حليبٌ ولا يحلب، وله أجنحةٌ ولا يطير؟! وهكذا تتجلَّى لنا في هذا اللغزِ براعةُ العبقريةِ الفرديةِ والجماعيةِ في جعلِ البنيةِ العميقةِ مستترةً: ألا وهي "شجرةُ النَّينِ، رامزاً لها بأشياءٍ أخرى لها علاقةٌ وطيدةٌ بالمستعارِ منه.

وفي: إَوْتُ وَدَقْلٌ هُدَنْتُ نَسِيرَ (10).

يمثلُ هذا التركيبُ البنيةَ السطحيةِ التي تحملُ في طياتها البنيةَ العميقةَ التي تقفُ وراءَ هذا السياقِ، وهي تختلفُ اختلافاً كبيراً، لكن ثمةَ قرائنٌ تجعلُ هذا اللغزَ

يحمل دلالات ورموزاً أخرى تخنفي وراء البنية التركيبية له، تجعل من يحسن الربط بينهما وبين ما يشبهها في الواقع يهتدي إلى استنباط المعنى الحقيقي المراد منه.

فقد وقف الإنسان الشعبي وقفة الحكيم المتبصر أمام مرحلة من عمر الإنسان أنى يصير يحبو من جديد على ثلاثة لا أربعة.

ب- الأمثال:

ففي: لَمَعُونَ تَغْلَبُ سَبْعَ (10). يدعو هذا المثل إلى ضرورة الاتحاد والتعاون وتعزيز صفوف المجتمع ضمانا للتكافل الاجتماعي.

إنّ ما يعزّز ويقوّي دلالة ألفاظ التركيب هو ما يحمله المثل من مواقف إنسانية نبيلة تعمل على تدعيم العرى الوثقى بين مختلف شرائح المجتمع، وتترك آثاراً قويّة وعميقة في حياة الأفراد والجماعات. إنّ المتأمل في لفظة "سبع" يدرك أنّ المشبّه هو الجماعة رمز القوّة الجبّارة والشجاعة النادرة، فبمقدورها أن تحوّل الجبال سهولاً والصعب سهلاً، والبعيد قريباً، والمستحيل ممكناً.

وفي: يَلْ وَسَّ، يَلْ أَرْكَ، يَلْ أَرْكَ. (11)

يتناول هذا التركيب البعد الروحي لدى الإنسان، فهو يحمل سلوكاً ثقافياً يظهر جلياً في التربية الدينية، فيذكر باستمرار الخب والمغفل بعدم نسيان عالم الغيب، فهو بذلك يعبر عن جمالية الثلاثية الأدبية التي تعبر عن النظام الديبكاروني الثلاثي: اليوم (يكون قد مضى)، وغدا (بقي للحياة وهو يكون قد مات)، والرّمس (الأزلي).

يعكس هذا القول المأثور النظرة الشعبية للقضاء والقدر و العالم المرئي والغيبى، فهو يعمل على تحديد ثقافة وطنية.

وفي: يرأسغر أور يتلقم (12)، يدعو هذا المثل العقلية الشعبية إلى الحرص الشديد على التربية الحسنة قبل فوات الأوان، فهو يشير إلى حقيقة مكتسبة من الواقع عن طريق الاحتكاك المباشر بالطبيعة التي تضرب للإنسان أمثالا، عساه يقتدي ويعمل بها،

ك: إِمْع نَسَبَ مَعْقُل دَوْ ثُمْرَتْ إِسْمُقُل (13)

يشير هذا المثل إلى الأرض والتربة، لأن التربية تبدأ مبكراً، ومن المهد.

ك: أَكُنْ تَعْلُ زَرْعِ أْتَمَع<sup>(14)</sup>. يشير المثل هنا إلى التروي وعدم التسرع في الأمور وإنجازها، لأنَّ لكلَّ مرحلة خصائصها ومميزاتها.

وفي: نَفْسُ تَنْزَرِي أَنْبُدُ يَنْعَب<sup>(15)</sup>

ينظر الإنسان الشعبي إلى الربيع بمثابة إطار زمني لإحياء وبعث الطبيعة. ويعتبر شهر مارس نقطة تحول للمنحنى الزراعي، فيحتفل به وكأنه شهر التجديد (Renaissance)، فهي ظاهرة تخص تحديد الفضاء الزمني حيث الحياة والحركة والحيوية.

وفي: أَنْزَرُ، أَنْزَرُ، أَرَبُ سَوْتُ أَرَزَرُ<sup>(16)</sup>.

إنَّ السعي والبحث عن المطر (أنزر) هو قديم لثلاثية الخصب: "المرأة والحيوان والأرض). قال G.Camps عن الرجل البدائي بأنه هو مشغول ومهموم البال، لأنه لا يقوى على تحمّل خصوبة قطعانه ولاسيما خصب أراضيهِ... فلا يزال الفرد الشعبي يمارس طقوسا أو ممارسات سحرية وهي موجهة كلها لتحفيز القدرات المخصبة للطبيعة.

وفي: لَجَزُ إَوْصَدُ فَلَسُ نُب<sup>(17)</sup> يعمل التشاكل التركيبي في هذا المثل على تحقيق الروابط بين الألفاظ والمدلولات تعبيراً عن علاقة الجيرة التي تعدّ ضرباً من ضروب العلاقات الاجتماعية التي لا غنى عنها، المبنية على تدعيم المعاملات الطيبة التي تجلب الهدوء والسكينة، حيث ترتاح لها النفوس. وهكذا أظهرت فاعلية العلامة وتوظيفها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية، لأنها تشكل وظائف إيصالية وتبليغية وترميزية وإيحائية، ذلك أنّ التواصل والإبلاغ تنشئهما زمرة من الأنظمة من العلامات الدالة على الظواهر الاجتماعية من حيث دوالها لمدلولات متنوعة ومتباينة.

أخيراً تحمل ألفاظ الألغاز والأمثال بإيقاعاتها الخارجية والداخلية التي تفرزها حروفها عناصر الحس الشديد المفرط للتدوّق الإشباعي، ممّا أضفى عليها السيوّلة من الأنغام الإيقاعية، وهي محمّلة بكثافة وجدانية.

إنَّ حسن التقسيم في الألغاز والأمثال أعطى إيقاعاً، ركّب تركيباً عبقرياً، وهذه العبقرية أقيمت على الدّوق والمنطق معاً، لأنَّ الباطن الشعبي يريد أن يقدّم للمتلقّي الشعبيّ متعة روحية فيها من الجمال الفني ما يشده إلى رسالته، ويجعله يلتذّ بسماع دوالها<sup>(18)</sup>.

فقد أقيمت الألغاز والأمثال على الإيجاز الشديد والطول المتوسط، لأنّ الباث الشعبي يفضل أن يصطنع الجمل القصار حتى تنتشر بين أكبر عدد ممكن من المتلقين ويكون حفظها سهلا وروايتها ميسرة، ونقلها إلى الآخرين ممكنا ومضمونا.

فقد أقيمت الألغاز والأمثال على الإيجاز الشديد والطول المتوسط، لأنّ الباث الشعبي يفضل أن يصطنع الجمل القصار حتى تنتشر بين أكبر عدد ممكن من المتلقين ويكون حفظها سهلا وروايتها ميسرة، ونقلها إلى الآخرين ممكنا ومضمونا.

وهكذا فقد حملت الألغاز والأمثال في طياتها أصول ثقافة المجموعة البشرية التي قامت بإنشائها، لأنها تلي عندها حاجيات نفسية ودينية (روحية) وعقلية ووجدانية. فهي تتضمن سمات ثقافية ونشاطات معرفية مختلفة. وهكذا جاءت هذه التعابير الشعبية محفوفة بقيم ثقافية وطنية مكونة لرصيد معرفي غني، وهي بذلك تكون قد أسهمت في تحديد ثقافة وطنية.

## الهوامش:

- (1) فيدوح عبد القادر: 1993، دلالية النصّ الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر ص 6، نقلا عن: مفتاح العلوم، ص 151.
- (2) انظر: بيير جيرو، علم الإشارة، ص 16.
- (3) الساريسي عمر عبد الرحمن، الحكاية الشعبية في المجتمع الفلسطيني، دراسة ونصوص، ص 210.
- (4) انظر: فتوح أحمد: 1978، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، ط2، القاهرة، ص 35.
- (5) انظر: غنيمي هلال: 1973، النقد الأدبية الحديث، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ص 37.
- (6) أبيض كالعجل يشرب الماء كالقرد.
- (7) أبيض يطحن، أحمر يمنع، ساقية تنحدر نحو بحر هادئ.
- (8) لديها حليب ولا تحلب، لديها أجنحة ولا تطير.
- (9) سقط الثلج فتهدّمت الطواحن.
- (10) إنّ التعاون يغلب الأسد.
- (11) هناك يوم، هناك غد، هناك قبر.
- (12) الحطب الرديء لا يطعم.
- (13) إنّ الإنبات الجيد يعرف منذ خروجه من الأرض.
- (14) مثلما تسقط البذرة تنبت.
- (15) إنّ الربيع يرّي والصيف يشحن.
- (16) أنزر أنزر، يا ربّ اسقها حتّى الجذور.
- (17) الجار قد أوصى عليه النبي.
- (18) Voir, Littérature orale: 1982, actes de la table ronde, C.R.A.P.E, office des P.U, Alger, p.155.

Kristiva (J.): 1969, recherche pour une sémanalyse, essais, (19  
collection, tel quel, éd. Du Seuil, Paris.

Jolles (A.): 1972, les formes simples, collection poétique, éd. du (20  
seuil, paris.

MACI B(Y.) (21